بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة ق من الآية (١) إلى الآية (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} [سورة ق:١-٥].

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات، وأما ما يقوله العوام: إنه من "عَمَّ" فإنه لا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء -رضي الله عنهم- المعتبرين فيما نعلم، إذا عُلم هذا فإذا عددتَ ثمانيا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة "ق"، بيانه: ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء، وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، وسبع: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، وتسع: سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، وإحدى عشرة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان و"الم" السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، وثلاث عشرة: الصافات و"ص" والزمر وغافر وحم السجدة و"حم عسق" والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات، ثم بعد ذلك حزب المفصل كما قاله الصحابة -رضي الله عنهم-، فتعين أن أوله سورة "ق"، وهو الذي قلنا، ولله الحمد والمنة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد مضى الكلام عن الحروف المقطعة وأن الأقرب أنها حروف تهجٍّ لا معنى لها في نفسها، وإنما فيها إشارة إلى الإعجاز لهذا القرآن الذي تحدى الله -تبارك وتعالى- به أنه مركب من هذه الحروف التي تركبون منها كلامكم فأتوا بمثله، أما ما يذكر من معانٍ كثيرة -كما تعرفون قد اختُلف في هذه الحروف المقطعة على نحو من أربعين قولاً، لاسيما بعض الأقوال البعيدة جداً كقول من يقول: إن "ق" مثلاً هنا هو جبل محيط بالأرض- فأشياء لا أصل لها ولا حقيقة لها.

وأما ما ذكره من أن "ق" هي أول المفصل وما احتج له من قوله: **إذا علم هذا فإذا عددتَ ثمانيا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ق بيانه: ثلاث... الخ**، فالمقصود بهذا التقسيم الذي كان عليه عامة السلف -رضي الله عنهم- في جعل القرآن على سبعة أجزاء أو أقسام، فما كانوا يقسمون للتلاوة والختم على هذه الأجزاء الثلاثين، أو أكثر أو أقل من هذه التجزئة التي كانت بعد عهد الصحابة -رضي الله عنهم-، وإنما كانوا يقسمون بالسور، فختم القرآن في سبعة أيام أو في سبع ليالٍ، كيف يقسم؟

يقسم بهذه الطريقة، وكان أكثر السلف -رضي الله عنهم- يختمون في سبع، وكما قال شيخ الإسلام: إن التقسيم بالسور موافق لطريقة السلف وهو أحكم من طريقة الخلف؛ لأن طريقة المتأخرين على التجزئة التي نقرأ بها لربما ينتهي الجزء في وسط القصة، فضلاً عن السورة، فتنقطع المعاني.

أما السلف فكانت تُقرأ السورة كاملة كما في هذا التقسيم، هذا أوفق وأنفع بلا شك، المهم أنه يحتج لهذا -لكونها أول المفصل- بالتقسيم الذي كان عليه السلف، فكان حزب المفصل هو الأخير، فإذا حُسب بهذه الطريقة كانت سورة "ق" هي أول المفصل وليست الحجرات.

روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي ما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ في العيد؟ قال: "بقاف واقتربت"[1]، ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة.

حديث آخر وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: "لقد كان تَنُّورُنا وتنور النبي -صلى الله عليه وسلم- واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت {ق وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ} إلا على لسان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس"[2]، رواه مسلم.

ظاهره أنه كان يقرأ السورة كاملة على المنبر في الخطبة، ولو قيل: إنه كان يكتفي بقراءتها لم يكن ذلك بعيداً، وقولها: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرؤها كل جمعة يمكن أن يُحمل هذا على الكثرة، وإلا فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كانت له خطب كما هو معروف ونُقل بعضها، وإنما مثل هذا يمكن أن يُحمل على الكثرة أنه كان يخطب بها لما تضمنته هذه السورة من المعاني والمقاصد، وهكذا السور التي تُقرأ كسورة الكهف يوم الجمعة، والقراءة في صلاة الفجر السجدة والإنسان، فهذه كلها فيها ما يتصل بالبعث والنشور وقدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، وما يتعلق بالآخرة، وما يُذَكِّر بيوم القيامة، كل هذه السور تتحدث عن هذه القضايا، وأما ما يذكره بعضهم من معانٍ بعيدة فهذا لا يُلتفت إليه، يعني بعض الناس يفلسف هذه القضايا بطريقة لا تصلح أبداً، مثلاً سورة الكهف في أولها الكلام على قصة أصحاب الكهف، فهذه البداية في الدعوة بالعزلة، لجئوا إلى الكهف، وهذه مرحلة التربية، ثم يجعل هذه المراحل إلى أن يأتي ذو القرنين في الأخير، فيقول هذه مرحلة القوة وبناء الدولة، ومن هذا الكلام الذي لا أصل له، فيجعل القضية على ثلاث مراحل، ومن ثَم يقول: يؤخذ من سورة الكهف أن الدعوة تكون على مراحل وكلام يُنشر ويجد من يتلقفه ويتأثر به، وهذه القضايا تتحدث عن الآخرة وليست تتحدث عن عمارة الدنيا، وهذا يجعل ذلك في الدنيا وعمارتها، عكس ما قصده القرآن تماماً، فقصة أصحاب الكهف التي ذكرها الله -عز وجل- لبيان قدرته على إحياء الموتى هذه القصة أحد البراهين الدالة على هذا المعنى، إحياء من أماتهم فجعلها آية: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف:٩].

١- رواه مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين، برقم (٨٩١)، والنسائي، كتاب صلاة العيدين، باب القراءة في العيدين بقاف واقتربت، برقم (١٥٦٧)، وأحمد في المسند، برقم (٢١٩٤٦)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٤٧).

٢- رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٧٣)، وأحمد في المسند، برقم (٢٧٤٥٦).

وليس في المرحلة الأولى من التربية الذاتية، وقل مثل ذلك فيما ذكر في ثنايا السورة قصة موسى -عليه السلام- مع الخضر، وما إلى ذلك.

وروى أبو داود عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت ق إلا من فِي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب بها كل جمعة قالت: "وكان تنورنا وتنور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واحداً"[٣]، وكذا رواه مسلم والنسائي، والقصد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجُمع لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب، والله أعلم.

هذا كلام أهل العلم، تنتشر أشياء للأسف خفيفة وقصيرة كتيبات لربما في ثلاث أو أربع صفحات جميلة ولها غلاف تستهوي الناس، أو تستهوي بعض القراء، وفيها مثل هذه الأمور التي قد لا تكون صحيحة.

وقبل مدة قريبة اطلعت على كتيب عليه سورة بصمة يد كاملة للأسماء الحسنى، وكل اسم له معطًى معين وله رسالة معينة لنفس الإنسان يتذكرها إلى آخره، وهذه الأسماء أولاً بعضها لا يثبت، والمعاني التي ذكرها قد يقال غيرها أصلاً، وينتشر.

"ق" حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور كقوله تعالى: {ص} و{ن} و{الم} و{حم} و{طس} ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

ولا يقال -كما سبق-: إن حروف التهجي هذه من كونها لا معنى لها أنه يوجد في القرآن شيء لا معنى له؛ لأن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، التي هي حروف المعاني، أما حروف المباني التي تركب منها الأسماء والأفعال أو حروف المعاني مثلما نقول: زيد فالزاي والياء والدال لا معنى لها في نفسها إطلاقاً، ولا معنى لها في غيرها، ولكن يركب منها الكلام، ومن ثَم حينما يقال: القرآن لا يوجد فيه شيء ليس له معنى، ليس فيه حشو فهذا في الكلام الذي له معنى في الأصل، لا يوجد فيه لفظة ليس فيها معنى، ولا شيء من التراكيب، وأما هذه فحروف تهجٍّ وحروف التهجي في لغة العرب لا معنى لها، وإنما جاءت للإشارة إلى الإعجاز، -والله أعلم-، وهذا لا ينافي ما قد علمتم من أن القرآن ليس فيه حشو، وإنما كل ما فيه قد جاء لمعنى.

وقوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، أي الكريم العظيم الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤٢].

هذه المعاني التي ذكرها للمجيد قال: **الكريم العظيم**، وهكذا ما جاء عن بعض السلف كالحسن: رفيع القدر أو ما جاء عن بعضهم: كبير القدر، هذه معانٍ متقاربة، والمجد أوسع من ذلك كله، يأتي -إن شاء الله تعالى- في الأسماء الحسنى الكلام على المجيد فهو يتضمن صفة المجد التي هي أوسع الصفات يسمونها في تقسيم

٣- رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٧٣)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس، برقم (١١٠٢).

الصفات "الصفات الجامعة"، يعني: التي يلتئم تحتها معانٍ كثيرة فهي تدل على معنى الكثرة والسعة في الكمالات والعطاء.

وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثيرٌ في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [سورة ص:١-٢]، وهكذا قال هنا: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} أي تعجبوا من إرسال رسولٍ إليهم من البشر، كقوله -جل جلاله-: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} [سورة يونس:٢] أي وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

قول الحافظ بن كثير -رحمه الله- هنا يعني أن جواب القسم مُقَدَّر يُفهم من المذكور في قوله: **وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم**، فهو يُفهم من قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}، فالله -تبارك وتعالى- يذكر كثيراً في القرآن تعجب الكافرين ومعارضتهم لبعث نبي من البشر، {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]! فهذه واحدة.

والثانية {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} إلى أن قال: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} فهؤلاء الكفار يتعجبون من بعث نبي من البشر، أو رسول من البشر، وكذلك ينكرون البعث، فيفهم من هذا المذكور جواب القسم على قول الحافظ ابن كثير وجماعة من أهل العلم، وحاصل ما يذكره أهل العلم في مسألة القسم هنا يرجع إلى ثلاثة أقوال هذا واحد منها، وإن اختلفوا في تقديره، يعني أنه مقدر ليس بمذكور، انظر كلام الحافظ -رحمه الله-، يعني أن جواب القسم يكون مقدراً بما يُفهم مما بعده يعني يدل عليه ما بعده، ولهذا قال بعضهم كالأخفش: إن التقدير: لتُبعثنّ، يقولون: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} الخ، فهذا بعض ما تضمنه الكلام بعده التي هي إحدى القضايا التي أنكروها، أو تعجبوا منها وهي قضية البعث يكون: لتبعثن، وبعضهم نظر إلى القضية الأولى التي هي: بعث نبي من البشر {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} أنزلنا إليك لتنذر هكذا، أو معنى أوسع من هذا، هذا أخذ الجزء الأول، معنى أوسع من هذا كما يقول الشنقيطي -رحمه الله- بأن التقدير لا لما يقوله الكفار أو ما الأمر كما يقول الكفار، فيقول الكفار: {أَئِذَا مِتْنَا} الخ يعني هم يتعجبون من هذه القضية، وقبله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} ما الأمر كما يقوله الكفار، وقد مضى الكلام على نحو من هذا عند الكلام على {ص} فما ذُكر هناك يمكن أن يُذكر هنا، فهذا منحى ذهب إليه بعض أهل العلم، والمنحى الآخر هو: أن الجواب مذكور وليس بمقدر، واختلفوا في هذا الجواب أين هو من الآيات؟ لكنهم يتفقون على هذا المعنى أن الجواب مذكور وليس بمقدر، فبعضهم كالكوفيين يقولون الجواب: {بَلْ عَجِبُوا}، يقولون: هذا الجواب ونحن عرفنا من قبل أن مذهب الكوفيين سهل، ومن استعصى عليه الإعراب والنحو فعليه بمذهب الكوفيين، وإذا كان يقال: إن النحو بيت من خشب بابه من حديد، هذا على مذهب البصريين، وأما على مذهب الكوفيين فالنحو بيت من خشب وبابه من قماش، سهل ولا يحتاج إلى كثير من التقديرات ولا التكلفات ولا شك أن مذهب البصريين أدق، ولكنه أصعب، وبعضهم يقول: إن

الجواب هو قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق:١٨] متأخر جداً، هذا قال به بعضهم كابن كيسان، وهذا بعيد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} وهذا وإن كان أقرب من الذي قبله لكن الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن الجواب مقدر.

مع أن بعض أهل العلم -وهذا هو المنحى الثالث- يقول: إن الجواب قد لا يكون مذكوراً أصلاً ولا مقدراً، وهذا مر نظائر له في القرآن أن من أهل العلم من يقول في بعض المواضع: إن الجواب أصلاً لا وجود له لا لفظاً ولا تقديراً، فحاصل ما يذكرون في الفائدة من القسم أن المقصود التنويه بالمقسم به، وكلام أهل العلم ككلام ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن، في عددٍ من المواضع {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين:١-٤].

هذا مثلاً جواب القسم، لكن في مواضع يبقى الإشكال كهذا، فالجواب: بعضهم يقول: إن الجواب لا وجود له أصلاً، ومن ثم المقصود التنويه وهنا كما يقول ابن القيم: اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه وأنه حق من عند الله -عز وجل-، ولهذا حُذف الجواب ولم يُصرح به لما في القسم من الدلالة على هذا المعنى، أو لأن المقصود هو المقسم به {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} يعني: المقصود التنويه بالقرآن دون التفات إلى جواب، يعني: لا تنتظر جواباً للقسم.

لو تتبعت الأمثلة في الأقسام في القرآن في مثل كتاب التبيان مثلاً لابن القيم ستجد مواضع يذكرها لا جواب للقسم على ترجيحه واختياره في قول طائفة؛ لأن الجواب غير موجود.

قال الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان: "قوله تعالى: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} المقسم عليه في الآية محذوف، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة "ص" وقد أوضحناه في الكلام عليها، وقوله تعالى هنا: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} قد قدمنا في سورة "ص" أن من المقسم عليه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صادق وأن رسالته حق، كما دل عليه قوله في ص: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وقد دل على ذلك قوله هنا: {بل عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وقد قدمنا في "ص" أنه يدخل في المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث ويدل عليه قوله هنا: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} الآية"[٤].

ولذلك جاء التقدير عند الشنقيطي عاماً، باعتبار نفي ما يقوله الكفار، فالكفار يقولون هذا وهذا.

وقال -رحمه الله-: "والحاصل أن المقسم عليه في "ص" بقوله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [سورة ص:١]، وفي "ق" بقوله: {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} محذوف، وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنكارهم البعث، وإنكارهم كون المعبود واحداً، وقد بينا الآيات الدالة على ذلك في سورة "ص" وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة "ق" هذه المحذوف يدخل في إنكارهم لرسالة النبي -صلى الله عليه وسلم-

---

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٤٢٢).

بدليل قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، وتكذيبهم في إنكارهم للبعث، بدليل قوله: {فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}، وبينا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا"[٥].

ثم قال -عز وجل- مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعاد وقوعه {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي يقولون: أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ذلك رجع بعيد، أي بعيد الوقوع، والمعني أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه.

قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} هنا الظاهر أن التعجب من ماذا؟ {أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ}، لكن {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} إلى أن قال: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ}.

هنا الآية الأخيرة: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} ما هذا الحق الذي جاءهم؟ هل هو الوحدانية، أو من النبوة بعث الله نبياً بشراً؟ أو من قضية البعث؟ {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ}.

قال الله تعالى رداً عليهم: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ} أي ما تأكل من أجسادهم في البِلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} أي حافظ لذلك، فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ} أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم. ثم بين -تبارك وتعالى- سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلافه كقوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [سورة الذاريات:٨-٩].

قوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت، يعني: إذا ماتوا وتحللت أجسادهم فإن الله يعلم ما تفرق منها، هذا الذي عليه عامة المفسرين، هذا قول الجمهور من السلف فمن بعدهم، وبعضهم كالسدي يقول: إن قوله: {مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ} يعني: بالموت، يعني: من يصيرون إلى الموت والفناء، بمعنى أن الأحياء ينقصون، فيكون مآلهم إلى القبور، إلى الدفن، إلى التراب، وليس المقصود على هذا المعنى ما يتحلل من الأجساد وإنما ما تنقص الأرض من الأحياء بأن يموت من يموت منهم، فهم يموتون شيئاً بعد شيء، حتى يموت الجميع، فهذا المعنى وإن كان له وجه إلا أن المعنى الأول أظهر وأدل على القدرة، فهذه الأجزاء التي تتحلل إلى تراب الله -تبارك وتعالى- يعلم إلى أين صارت وما مآل ذلك كله، ثم الله -تبارك وتعالى- يعيد خلقه من جديد.

٥- المصدر السابق.

{وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} الراجح أن الحفيظ هنا فعيل بمعنى فاعل {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} يعني قيل هو اللوح المحفوظ، المراد به أن الله كتب فيه كل شيء، وكون هذا الكتاب حفيظاً بمعنى أنه لا يذهب منه شيء ولا يفوته شيء ولا ينمحي منه شيء.

وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن المراد بقوله: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، هو اختيار أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، قال -رحمه الله- في تفسير سورة ق: "القول في تأويل قوله تعالى: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، يقول القائل: لم يجر للبعث ذكر فيخبر عن هؤلاء القوم بكفرهم.."[٦].

هذا سؤال ذكره ابن جرير، ثم أجاب عنه، انظر في الآيات {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} التعجب الآن أن جاءهم منذر من البشر، ثم مباشرةً بعده {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} الآن التعجب من بعث بشر جعله الله -عز وجل- رسولاً، فما علاقة البعث؟ بلا مقدمات {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}؟ يعني التعجب هناك لم يكن من البعث، ما قال مثلاً: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا} أن يبعثوا مثلاً بعد الموت، عجبوا من البعث وقالوا {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} لا، {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} شيء عجيب، يعني: أن بعث الله بشراً رسولاً، {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} بلا مقدمات ذكر هذه بعد هذه {أَئِذَا مِتْنَا} فصار التعجب الآن من قضية ثانية هي البعث ولم يُذكر، فهنا البعث لم يذكر، إنما ذكر التعجب من بعث البشر رسولاً، وجاء التعجب في الآية هذه: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} ووجه ذلك يجيب عليه ابن جرير -رحمه الله- حيث قال: "فما وجه الخبر عنهم بإنكارهم مالم يدعو إليه وجوابهم عما لم يسألوا عنه؟ قيل: قد اختلف أهل العربية في ذلك فنذكر ما قالوا في ذلك، ثم نتبعه البيان -إن شاء الله تعالى- فقال في ذلك بعض نحويي البصرة: قال: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} لم يذكر أنه راجع، وذلك -والله أعلم-؛ لأنه كان على جواب، كأنه قيل لهم: إنكم ترجعون فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}"[٧].

على كلام البصريين {أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ} فقال لهم: إنكم تبعثون فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} فتعجبوا من قضيتين مجيء رسول من البشر، وهذا الرسول، قال لهم: تبعثون فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}.

وقال -رحمه الله-: "وقال بعض نحويي الكوفة: قوله: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} كلام لم يظهر قبله ما يكون هذا جواباً له، ولكن معناه مضمر، إنما كان -والله أعلم- {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} لتُبعثنّ بعد الموت، فقالوا: أئذا كنا تراباً بُعثنا"[٨].

٦- جامع البيان، للإمام الطبري ت شاكر (٣٢٧/٢٢).

٧- المصدر السابق.

٨- المصدر السابق.

عند الكوفيين بناء على جواب القسم المقدر {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} كما سبق لتبعثن، فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} إن هذا جواب القسم المقدر لتبعثن، فقالوا: فتعجبوا فقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}.

وقال -رحمه الله-: "ثم قالوا {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} جحدوه أصلاً، قوله: {بَعِيدٌ} كما تقول للرجل يخطئ في المسألة: لقد ذهبت مذهباً بعيداً من الصواب، أي أخطأت.

والصواب من قوله في ذلك عندنا أن في هذا الكلام متروكاً استُغنى بدلالة ما ذُكر عليه من ذكره، وذلك أن الله دل بخبره عن تكذيب هؤلاء المشركين الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عن تكذيبهم رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- بقوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} على وعيده إياهم على تكذيب محمد -صلى الله عليه وسلم- فكأنه قال لهم إذ قالوا منكرين رسالة الله رسولَه محمداً -صلى الله عليه وسلم- {هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}: ستعلمون أيها القوم إذا أنتم بعثتم يوم القيامة ما يكون حالكم في تكذيبكم محمداً -صلى الله عليه وسلم- وإنكاركم نبوته، فقالوا مجيبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} نعلم ذلك، ونرى ما تعدنا على تكذيبك {ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي أن ذلك غير كائن ولسنا راجعين أحياءً بعد مماتنا، فاستغني بدلالة قوله: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} من ذكر ما ذكرت من الخبر عن وعيدهم"[٩].

إذاً ففيه ثلاثة أقوال، قول البصريين: إنه مقدر، يعني لما جاءهم رسول من البشر تعجبوا {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} هذا الرسول قال لهم: ستبعثون فتعجبوا وقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، على قول الكوفيين: إن ذلك عُرف من جواب القسم {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} لتبعثن، فتعجبوا وقالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، وعلى قول ابن جرير أيضاً إنه مقدر، يُفهم من مضمون ما ذكر: {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} فتعجبوا واستبعدوا مجيء رسول من البشر، فكأنهم تُوُعِّدُوا على هذا التكذيب بهذا الرسول بالعذاب في الآخرة، فتعجبوا ثانية من هذا {أَئِذَا مِتْنَا} يعني سنبعث، هل سيكون بعث أصلا حتى نُعذب؟، وكأنه يُفهم -والله تعالى أعلم- من ذلك كله أن هؤلاء الكفار -والقرآن يختصر ما يُفهم إن كان في المذكور ما يدل عليه كما هي عادة العرب وهذا من بلاغة الكلام- لما جاءهم رسول {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} وكان في مضامين هذه الرسالة: البعث كما هو معلوم، وهو إحدى القضايا الكبرى التي جاء القرآن لتقريرها لاسيما في السور المكية، فالوحدانية، والوحي والرسالة، والبعث، هذه القضايا الثلاث في السور المكية، وهذا كثير جداً، فكان في مضامين هذه الرسالة تقرير البعث، فتعجبوا أيضاً من هذا فذكر القرآن هاتين القضيتين {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا} ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ} فالحق الذي كذبوا به بعضهم يقول: القرآن، كما يقول ابن جرير: الحق الذي كذبوا به هو القرآن، وبعضهم يقول: الإسلام، وبعضهم يقول: بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: بالنبوة أصلاً، كل هذا متقارب، هم كذبوا

٩- جامع البيان، للإمام الطبري ت شاكر (٢٢/٣٢٧-٣٢٨).

بهذه القضايا جميعاً، {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ}: كذبوا بالإسلام، بالقرآن، بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- وما تضمنته دعوته من تقرير الوحدانية، وكذلك البعث، {كَذَّبُوا بِالْحَقِّ} الذي جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم-، والحق الذي جاء به هو الإسلام، والقرآن، والنبوة، كل هذه المعاني صحيحة، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- قال في المريج: قال: **المختلف المضطرب الملتبس المنكر...الخ**، ابن كثير -رحمه الله- هنا جمع بين الأقوال التي يذكرها السلف، يذكرون هذه المعاني: مريج مضطرب، بعضهم يقول: مختلف، بعضهم يقول: فاسد، يقال: هذا شيء مريج أو مارج، مرجت البيضة: يعني فسدت، مروج: أي أزهار مختلطة، نباتات مختلطة، فهذه اللفظة فيها الاختلاط والاضطراب، ناس في أمر مريج: يعني في حال من الاضطراب، فهذه كلها معانٍ صحيحة ذكرها السلف -رضي الله عنهم- وهذه من مزايا هذا الكتاب أنه يجمع بين الأقوال، وهذا لا يُعرف إلا بالرجوع إلى كلام السلف والمقارنة بين عبارته الدقيقة وبين ما قاله السلف، ولا يتبين للقارئ لأول وهلة.

{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [سورة ق:٦-١١].

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا} **أي بالمصابيح** {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} **قال مجاهد: يعني من شقوق، وقال غيره: فتوق. وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب كقوله -تبارك وتعالى-:** {ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [سورة الملك:٣-٤]، **أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله -تبارك وتعالى-:** {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا} **أي وسعناها وفرشناها** {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} **وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب** {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} **أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع** {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، **وقوله:** {بَهِيجٍ} **أي حسن المنظر** {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} **أي ومشاهده خلق السماوات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أي خاضع خائف وَجِل رجاع إلى الله -عز وجل-، وقوله تعالى:** {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} **أي نافعا** {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ} **أي حدائق من بساتين ونحوها** {وَحَبَّ الْحَصِيدِ} **وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره** {والنخل باسقات} **أي طوالا شاهقات.**

هنا في قوله: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} هنا ماذا يقول: **الزرع الذي يراد لحبه وادخاره**، حب الحصيد: يعني ما يُقتات ويُحصد من الحبوب، يعني حب الزرع الحصيد، هذا الذي يقوله عامة المفسرين وأصحاب كتب معاني القرآن، حب الحصيد: حب الزرع الحصيد، هذا قول البصريين، أن فيه مقدراً، حب الزرع الحصيد.

الكوفيون يقولون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه لا يحتاج إلى تقدير، حب الحصيد مثل: مسجد الجامع، يعني: هو المسجد نفسه، فحب الحصيد: الحب نفسه، أضافه إلى نفسه باعتبار صفته أنه يُحصد هذا الحب، لكن الكوفيون يقولون: حب الزرع الذي يحصد، حب الزرع الحصيد، أن الذي يُحصد هو الزرع، ثم يستخرج منه الحب، والأمر واضح من جهة المعنى، ومذهب البصريين هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أن المعنى: حب الزرع الحصيد.

وابن كثير في قوله: **هو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره**، يوافق مذهب البصريين ويوافق كلام ابن جرير، العلماء هكذا عبروا قالوا: الحب الذي يُقتات ويُدخر...إلى الخ، وخصوا الحب بالذكر -مع أن هناك أشياء ثانية تخرج بالمطر غير الحب- لأنه مبنى الأقوات يعني هذه الحبوب، ولذلك في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} [سورة المطففين:١-٢]، فذكر الكيل مع أن التطفيف قد يكون بالوزن أيضاً، لكن لما كانت الأقوات -ثورة الخبز- كما يقال معايش الناس الأساسية، القضايا الأساسية عندهم التي تلمس الحاجة مباشرة هي الأشياء المكيلة من الحبوب التي عليها قوام العيش، فهنا جاء الوعيد: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [سورة المطففين٢:٣] فذكر الوزن في الآخر، والله أعلم.

{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} أي طوالاً شاهقات، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات: الطوال.

هذا قول الجمهور، أن الباسقات: الطوال، مع أن لفظة الباسقات تأتي بمعانٍ أخرى، بسق: تأتي لمعانٍ غير الطول، لكن هنا في هذا الموضع {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} بمعنى: الطوال، وإلا فسعيد بن جبير يقول {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ}: يعني مستويات، {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} وبعضهم يقول: مواقير، حوامل {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} يعني مليئة بالحمل الثمر، حيث عذوق الرطب أو البسر أو التمر موقرة بهذه الثمار، كما يقوله جماعة من السلف كالحسن وعكرمة واختاره من أصحاب المعاني: الفراء، يعني: موقرة، ليس المقصود طويلة بل: حوامل، والشاة يقال: بسقت يعني ولدت، فهذا الحَمل الذي في هذه، وما يخرج وما يكون من الثمار المُوقَر في عذوق النخل، بعضهم يقول هذا معنى باسقات، لكن الذي عليه الجمهور، وهو اختيار ابن جرير والذي ذكره ابن كثير: أن المقصود بالباسقات: الطوال.

لكن يرد هنا سؤال هو أن الله -عز وجل- هنا قال: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ} يعني طوال، وفي موضع آخر قال: {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} [سورة الأنعام:٩٩]، قريبة التناول، لكن الباسقات هي التي لا تطالها الأيدي لارتفاعها.

يزعم بعضهم أن عندهم نخلاً طوالاً، في البلاد والمزارع القديمة تجد النخل أحياناً يصل إلى طول عظيم من أيام الأجداد بعضهم يزعم أنه لا يُؤبّر هذا النخل إلا بنوع من البنادق اسمه أم مقمع تُحشى في داخلها أشياء مع البارود، ثم يَرمى بها، قديمة لها فوهة عريضة قليلا، يقول: لا تؤبر إلا بهذا، بالرمي لبعدها، وهذا كلام غير صحيح، وفي الآية الثانية {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} قريبة، سهلة التناول، قريبة من الأيدي، في مقام الامتنان، فما وجه الجمع بين هذه الآيات؟

الجواب: هنا هي في بيان دلائل القدرة أعظم في نظر الناظرين، النخل الطوال الباسقات، فهذا من دلائل قدرته -تبارك وتعالى- وبديع صنعه {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} تريد أن تذكر أو تورد نماذج أو صوراً أو مرئيات ومشاهد تدل على خلق الله وعلى قدرته وعلى بديع صنعه تأتي بالنخل الطوال، {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ}.

أما في مقام الامتنان {وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} فهي قريبة تأخذ منها، سهلة التناول، في متناول اليد، {وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ} فهذا كله في مقام الامتنان.

{لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} **أي منضود**، {رِزْقًا لِّلْعِبَادِ} **أي للخلق**.

الطلع: أول ما يخرج من الثمر للنخل، هذا المعروف في كلام العرب والذي ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وهو معنى معروف، {لَهَا طَلْعٌ} الطلع أول ما يخرج من الثمر، والنخل أول ما يخرج في غلاف، كما سبق في قوله: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا} [سورة فصلت:٤٧]، فهذا الكِم، والكُم -كما يقول بعضهم بالضم والكسر- هو هذا الغلاف عند تأبير النخل، فتخرج في هذه الأغلفة، فهذا الطلع الآن هو أول ما يخرج من الثمر للنخل.

نضيد: أي منضود بمعني: متراكب، ما المقصود بهذا الطلع النضيد؟ يعني المقصود ما كان في أكمامه ولم ينفتح بعد {لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ}، أما إذا انفتح وخرج من أكمامه فليس بنضيد، هذا الذي قاله أهل العلم من أهل اللغة، قاله ابن جرير -رحمه الله- وابن القيم، أن ما كان في أكمامه فهو النضيد، وأما إذا خرج منها قالوا: فليس بنضيد، لا يُقال له نضيد، ولهذا الآن بعضهم يسمي محل التمور "نضيد"، هذا لا يقال له نضيد بها إن كان يقصد هذا المعنى الذي في الآية، وإنما النضيد ما كان في أكمامه قبل أن يخرج.

{رِزْقًا لِّلْعِبَادِ} **أي للخلق**، {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا} **وهي الأرض التي كانت هامدة فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرْف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المُشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث.**

هذه إحدى الطرق في الاستدلال للبعث في القرآن الكريم، إحياء الأرض بالمطر، وهذا كثير في القرآن، هذا أحد أنواع الأدلة وله مفردات وأمثلة كثيرة، وهناك أشياء أخرى مثل: خلق السماوات و الأرض وأنها أكبر من خلق الناس، وهناك أناس ماتوا فأحياهم الله -عز وجل-، وهناك إخراج النار من الشجر الأخضر، إلى غير ذلك من دلائل قدرة الله -عز وجل- على البعث، ومن أشهرها: الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، ولهذا قال: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سورة ق:١٥].

كقوله -عز وجل-: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [سورة غافر:٥٧] **وقوله تعالى**: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف:٣٣]، **وقال -سبحانه وتعالى-**: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة فصلت:٣٩].

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سورة ق:١٢-١٥]، **يقول تعالى مهدداً لكفار قريش، بما أحله بأشباههم ونظائرهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس، وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان.**

مضى الكلام عن هذا وأقوال المفسرين، بعضهم يقول: إن أصحاب الرس هم قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام-، وهذا فيه نظر -والله أعلم-، وبعضهم يقول: إن أصحاب الرس هؤلاء هم الذين جاءهم {مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [سورة يس:٢٠] يعني الذين ذُكروا في سورة يس هم أصحاب الرس، وبعضهم يقول: إن هؤلاء هم أصحاب الأخدود، وأصحاب الأخدود ذكرهم الله بهذا {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} [سورة البروج:٤]، ولم يُذكروا بغيره، والله تعالى أعلم.

وقال ابن جرير -رحمه الله- في هذا: إنهم قوم رسُّوا نبيهم في بئر؛ لأن الرَّس في لغة العرب بمعنى: البئر إذا كانت غير مطوية، فهؤلاء كأنهم وضعوا نبيهم في بئر، عدوا عليه وفعلوا به ذلك، وبعضهم يقول غير هذا، وبعضهم يقول: هؤلاء في أنطاكيا، لكن هؤلاء يقولون بناء على آية يس: إن ذلك كان بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام-، لكن لا يُعرف نبي بعد عيسى -عليه السلام-، وأن ما يُذكر في هذا حتى في أنطاكيا أنه لم يُعرف أن الله بعث رسولاً في أنطاكيا يعني من الناحية التاريخية، فبعض هؤلاء يزعم أن هؤلاء قتلوا حبيباً النجار {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} يقولون: إنه حبيب النجار، وهذا كله من الأخبار الإسرائيلية، وإن قال به بعض السلف كمقاتل وعكرمة.

وبعضهم يقول: هؤلاء كانوا في مكان آخر في أذربيجان، وأنهم قتلوا أنبيائهم فجفت أشجارهم وزروعهم، فماتوا من الجوع والعطش، وبعضهم يقول: كانوا يعبدون الشجر، وبعضهم يقول: كانوا يعبدون الأصنام وأنهم قوم شعيب، وبعضهم يقول: هؤلاء ناس أرسل الله إليهم رسوله فأكلوه، فقتلوه وأكلوه، وبعضهم يقول: هذه هي المرداة بقوله: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [سورة الحج:٤٥] وهذا بعيد؛ هذه في ذكر أنه أهلكهم الله -عز وجل- يعني صارت هذه البئر التي كان يُستقى منها، يعني: أيّ بئر، ليست بئراً معينة، وقصور كانت مشيدة هلك أهلها لم يبق منهم باقية، وبعضهم يقول: هي بئر كانت لثمود، وهذا أيضاً لا يخلو من بُعد، وبعضهم يقول غير ذلك.

وبعضهم يقول: الرس: هو الثلج الذي في رءوس الجبال في المناطق التي يكون فيها الثلج، وبعضهم يقول: اسم وادٍ إلى غير ذلك، وبعضهم يقول: الرس من الأضداد يعني الإفساد بين الناس وكذلك الإصلاح بينهم، فهو صفة من الأوصاف، وبعضهم يقول: هم أصحاب حنظلة بن صفوان، وهذا لا أساس له، وحنظلة بن صفوان يقولون: إنه بعد عيسى -عليه الصلاة والسلام- وإنه جاءهم، ويذكرون خبراً من الإسرائيليات كل هذا لا أساس له، وأصحاب الرس: الرس بئر، ابن جرير يقول: إنهم جعلوا نبيهم فيه، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: الرس هو موضع، وبعضهم يقول: فِعْل كالإفساد بين الناس، أو قول من قال: إنهم رَسُّوا نبيهم يعني أصحاب الرس بمعني هذا الفعل الذي فعلوه رسوا النبي الذي بعث إليهم أو أنهم قوم أكلوا نبيهم، أو

قتلوه، أو إما أن يكون موضعاً، وإما أن يكون فعلاً كحفر البئر مثلاً، الرس حفر، والأقرب -والله أعلم- أن يُقال: إن أصحاب الرس: الرس بئر، وهؤلاء قوم نُسبوا إلى هذا إما أنهم رسُّوا نبيهم فيه، أو غير ذلك، والله تعالى أعلم.

{وَثَمُودُ *وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ} وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور.

قال: إخوان لوط، بعضهم يقول: لأنهم كانوا أصهاراً له، وبعضهم يقول: أصلاً هؤلاء هم في جملة قوم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ولذلك الملائكة لما أخبرته أنهم سيُنزلون العذاب بهم قال: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا} [سورة العنكبوت:٣٢]، فهم من جملة قوم إبراهيم -عليه السلام- و لوط كان يعرفهم فنسبوا إلى هذا، وهذا فيه بعد، والله اعلم.

والأُخُوّة تذكر بأجزاء معانٍ كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨] آية الأحزاب تحتمل بعض هذه المعاني، قد تكون في النسب بناء على أن بعضهم قال لأخيه في النسب، ويمكن أن يرجع إلى هذا من قال: في القبيلة، يعني فيكون هؤلاء قالوا لبني قبيلتهم، فهنا إخوان لوط كانوا من نفس القوم مثلاً من نفس القبيلة، هو ابن أخي إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ومعنى ذلك كما قال تعالى: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} [سورة العنكبوت:٢٦]، فظاهره أنه لم يكن منهم، يعني ليس من هؤلاء القوم الذين كانوا في هذه الناحية، والأخوّة تقال لمن يشتركون في بلد واحد، وهو أحد المعاني في قوله: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} كما أن الأخوّة تقال لمن يشتركون في دين واحد، وهذا غير مراد هنا في هذه الآية {وَإِخْوَانُ لُوطٍ}؛ لأنهم لم يكونوا على دينه، وفي آية الأحزاب يحتمل بناءً على أن القائلين هم من المنافقين قالوا لإخوانهم من المنافقين {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، والأخوّة تقال لمن يشتركون في صفة، أو في صفات كما في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [سورة الإسراء:٢٧] يعني يسيرون على طريقتهم وعلى منهاجهم ويتصفون بأوصافهم، فهنا {وَإِخْوَانُ لُوطٍ} باعتبار أنهم قومه الذين بُعث فيهم، والنسبة تكون لأدنى ملابسة.

وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم، وطغيانهم، ومخالفتهم الحق.

موطن قوم لوط هو نفس البحيرة المساة بالبحر الميت، هذا الذي يقوله كثير من أهل العلم ومن المؤرخين، وابن كثير مشى على هذا، و قد مضى ذلك عند قوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة الصافات:١٣٧-١٣٨]، وبهذا الاعتبار إذا قلنا بأن هذا مكان قوم لوط فتكون هذه أماكن المعذبين، يعني هذه البحيرة المسماة: البحر الميت، وبناء عليه هذه الأشياء التي تستخرج الآن منها، والمنتجات التي فيها، و العلاجات والمستحضرات الطبية والتجميلية، وما إلى ذلك من منتجات البحر الميت، يقال: إذا كان الأمر كذلك فإنه لا يؤخذ ذلك من أماكن المعذبين؛ ولهذا لما استقوا من الآبار في موطن ثمود -أعني أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أمرهم أن يعطوا العجين للدواب ولا يؤكل منه شيء، وإنما أذن لهم أن يستقوا من بئر الناقة.

{وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ} [سورة ص:١٣] وهم قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام- {وَقَوْمُ تُبَّعٍ} وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والشكر.

الكلام في أصحاب الأيكة في سورة الحجر **{وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ}** [سورة الحجر:٧٨-٧٩] **{وَإِنَّهُمَا}** يعني: لما ذكر قوم لوط، وذكر هؤلاء أصحاب الأيكة، وكثير من السلف يقولون في معنى الأيكة: هي الشجر الملتف، وأنهم قوم شعيب، وبعضهم يقول: الأيكة هي اسم لقريتهم، -والله تعالى أعلم-، ولكن الذي عليه عامة أهل العلم أنه اسم للشجر الملتف.

{كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ} أي كلٌّ من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل كقوله -جل وعلا-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم {فَحَقَّ وَعِيدِ} أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

قوله -تبارك تعالى-: **{وَقَوْمُ تُبَّعٍ}** قوم تبع كما يقول ابن كثير -رحمه الله-: هم قوم سبأ كانوا في اليمن، وأن الله -عز وجل- عذبهم وخرب بلادهم وشردهم في البلاد، وجعلهم الله -عز وجل- أي أهل سبأ- أحاديث ومزقهم كل ممزق، وتبّع لقب مثل: فرعون وقيصر وكسرى لمن ملك اليمن، يُقال له: تبع، وهؤلاء كانوا من قحطان من العرب، وملك عندهم يقال له: تبع، لكن ما جاء في كون النبي -صلى الله عليه وسلم- توقف فيه هل كان مؤمناً أو لا؟ وجاء في حديث آخر النهي عن سبه، وهذا كله صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه كان مسلماً، ووجه الجمع بين هذا وهذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يوحَ إليه فيه شيء، ثم بعد ذلك أوحي إليه، وأن تبع هذا كان مسلماً، ولهذا ذم الله قومه ولم يذم تبع، قال: **{وَقَوْمُ تُبَّعٍ}** المؤرخون يذكرون له خبراً أنه طاف أماكن كثيرة، وأنه جاء إلي المدينة و قاومه أهلها، ثم قال له أحبار اليهود: إنك لا تقدر على هذه البلدة؛ لأنها مبعث نبي، فأخذ حبرين من أحبار اليهود، وأنه هم بهدم الكعبة، فقالوا: إنك لا تمكّن من هذا؛ لأنه سيكون لهذا البيت شأن وقد بناه إبراهيم -عليه السلام-، فكساها، ثم بعد ذلك انطلق إلى اليمن وأنه تهود؛ لأن هؤلاء الذين كانوا معه قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- يهود فدخل في اليهودية، ثم دخل عامة أهل اليمن في اليهودية، يعني أنه آمن الإيمان الصحيح في ذلك الوقت قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن قرأ في كتب البلدان يجد أحياناً في بعض الأماكن مثل المناطق التي حول المدينة: وادي ملل، قريب من المدينة على طريق مكة القديم يبعد نحو أربعين كيلو متراً على طريق مكة تقريباً، وادٍ فيه أشجار من شجر العضاه، شجر فيه شوك يُقال له: ملل، يقال: إن تبّع مر به لما كان ذاهباً متجهاً من المدينة جنوباً وأراد أن يأتي مكة، ثم بعد ذلك يذهب إلى اليمن، فملّه لما نزل به قال: هذا ملل، فسمي بوادي ملل، والوادي لا يخلو من هذا، وكنت أقول: هذا وادٍ ممل والبقاء به لا يطاق، مع أنه مليء بالشجر والظليل، ولكل مسمى من اسمه نصيب، وهو معروف إلى اليوم، وبعضهم يذكر أشياء، مثل: أن تبّع هذا خرج من اليمن حتى وصل إلى سمرقند، وصار له ملك وجيوش وسلطان عظيم إلى آخر ما

ذكروا من خبره وفي الحديث: ((ما أدري تبّع كان نبيا أم غير نبي))، ونهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سبه باعتبار أنه أسلم، فأُوحي للنبي -صلى الله عليه وسلم- في شأنه.

وقوله تعالى: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ} أي أفأعجزنا ابتداءُ الخلق حتى هم في شك من الإعادة، {بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه كما قال -عز وجل-: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الروم:٢٧]، **وقال الله -جل جلاله-: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}** [سورة يس: ٧٨-٧٩]، **وقد تقدم في الصحيح: يقول الله تعالى: ((يؤذيني ابن آدم يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته))**[١٠].

في قوله -تبارك وتعالى-: **{كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ}** هنا جاء الفعل مفرداً، ما قال: كذبوا الرسل **{كُلٌّ كَذَّبَ}** باعتبار لفظ "كل"، فـ "الرسل" جمع ودخلت عليه "ال" فيحتمل أن تكون "ال" عهدية، يعني: الرسل الذين أرسلوا إليهم، ويحتمل أن تكون للجنس، ولا شك أن من كذب رسولاً فقد كذب بجميع الرسل، وكان أول رسول أرسل إلى أهل الأرض هو نوح -عليه الصلاة والسلام- ومع ذلك قال الله تعالى: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}** [سورة الشعراء:١٠٥]، مع أنهم ما أدركوا إلا رسولاً واحداً، من كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومن ثَم هنا إذا قيل: إن "ال" للجنس فهم كذبوا رسولهم، ومن ثم كانوا مكذبين بجميع الرسل **{كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}** [سورة البقرة:٢٨٥] **{كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ}، أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى من التكذيب...الخ، {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [سورة يونس:٩٦] **{فَحَقَّ وَعِيدِ}**، فوعيده النار فهذا لا يتخلف، حق عليهم العذاب.

فالوعد لا يتخلف، والوعيد يتخلف، والكريم إذا وعد لا يخلف، وإذا توعد قد لا يحقق الوعيد، ويذكرون البيت المعروف:

وإنِّي وإنْ أوعدتُه أو وعدتُه *** لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

يقولون: الوعد بالخير والإيعاد بالشر، فهذه الكلمة المشهورة هي ليست على إطلاقها في مسألة تخلف الوعيد، فالذين حقت عليهم كلمة العذاب وهم الكفار المخلدون في النار هؤلاء لا يتخلف عنهم الوعيد، هم داخلون النار قطعاً، فلا يتطرق إليهم هذا المعنى من أن الوعيد قد لا يتحقق في حقهم، وإنما هذا في **{إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}** [سورة النساء:٤٨] فهذا فيما دون الشرك، أما أهل الإشراك فوعيده لا يتخلف، وفي هذه المسألة تفصيل، أما أهل الإشراك والخلود في النار فوعيده لا يتخلف في حقهم، أما أهل الإيمان ما دون الشرك فهذا قد يتخلف فيهم الوعيد: هنا في قوله: **{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ}**، يعني: أعجزنا عن الخلق الأول؟.

وقوله: **{وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** [سورة الروم:٢٧] في الآية الأخرى، سبق الكلام عليه من جهة أفعل التفضيل، هل أفعل التفضيل مراد هنا؟ فهذا عنه جوابان:

١٠- رواه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وامرأته حمالة الحطب)، برقم (٤٩٧٤).

الجواب الأول: أن "أهون" هنا أفعل التفضيل ليس على بابه، وإنما المقصود مطلق الاتصاف: وهو هين عليه؛ لأنه يستوي في حق الله هذا وهذا، وهو على كل شيء قدير.

والجواب الثاني: أن {أَهْوَنُ عَلَيْهِ} هذا روعي فيه حال المخاطب، يعني: هذا بالنسبة إليكم، بحسب نظركم، وهذا كثير في القرآن، وله أنواع، كل نوع تحته أمثلة.